مصر العربية

للأستاذ أحمد رمزي بك

كتب أبو حيان التوحيدي عن العرب بعد أن شملتهم الدعوة والنبوة والشريعة فقال : « قد رأيت كيف تحولت جميع محاسن الأمم إليهم ، وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم ، من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها ، وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه وساقه إلى أهله بتأييده » . وتلك حال مصر العربية من يوم أن دخلها عمرو بن العاص وصحبه منقذين ومخلصين ، يحملون أعلام الحرية لا فاتحين وغزاة . فهذه البقعة من الأرض التي خاطب أهلها عمرو من مسجده العتيق بالفسطاط فقال لهم : « اعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، تتجه قلوبهم إليكم ، وتتشوق إلى ديارکم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » . قد خط الله لها في سجل قدره وإرادته أن تكون من البدأ قلب العروبة ، فهيأ لها أن تجتمع محاسن الأمم إليها وفضائل الأجيال عليها ، ومهد لها رجالا أتوا إلى الوادي لخدمته ، بعبقريتهم وسيوفهم ، وكان أن صمد أهل مصر طول القرون الماضية وهم في رباط دائم ، يخدمون الإسلام والعروبة بعلمهم وفكرهم ، ويذودون عن الإسلام ونفوذ المسلمين بأيمانهم وسيوفهم ، ألم تقم دولة آل طولون بما تعهدت به للدولة العباسية من حماية الشام وأهله والعواصم والثغور في طرسوس وما حولها ؟ ألم يدرك الرمق الأمير أحمد بن طولون في أنطاكية وهو عائد من جهاده ضد الروم في آسيا الصغرى ليموت بمصر ؟

تلك سنة الله التي اختطها لأهل مصر في الأعصر الخالية ، فكتب عليهم القتال والجهاد والشهادة وحملها لهم أمانة لجند مصر وأمرائها وملوكها ، فما وهنت أعناقهم عن حملها ، وإنما ساروا بها لألف سنة والنصر يواتيهم ، والشهادة تلاحقهم ، وكتبوا بدمائهم صفحات من المجد الخالد ، يعرفها كل من اطلع على تاريخ مصر العربية الإسلامية وشوكتها أيام استقلالها وعظمتها كما اعترف بها كتاب الغرب الذين كشفوا بأبحاثهم عن معارك الحروب الصليبية ، وإن عدّ كثير منهم أن يطمسوا الحقائق وتبعهم فريق منا يحاول التقليد ليخفي من أثر مصر وجهادها في تاريخ الإسلام والعروبة .

إننا في حاجة دائماً إلى من يذكرنا بمواقف مصر وجهاد أهلها السابق ؛ لأن هذا التاريخ الذي تنطق صفحاته بأيام النصر المتلاحقة المتتابعة عنصر هام من عناصر التكوين الروحي والعقلي للأمة المصرية ، وهذا الإيحاء الدائم المتواصل المستمد من تاريخنا الإسلامي والعربي هو مصدر روحي لقوة الأمة وعبقريتها واستعدادها للتصادم ومقارعة الأحداث .

وأعود بهذه المناسبة إلى كلمة نشرتها[1] عن الفكرة العربية وحاجتها إلى مجهود عدد كبير من المفكرين والباحثين ونظرت إليها كجزء مكمل للتكوين الروحي والعقلي للأمة المصرية . بل ذهبت في إيعازي بها إلى تقرير مبدأ يتلخص في أن الكثير من مشاكلنا الخلقية والقومية ، والتي تبدو لنا صعبة الحل ؛ سيسهل علينا مواجهتها على ضوء الأسس الاجتماعية التي لا تعتمد على العقل وحده بل تحرك القلوب والمشاعر ، وليس أعظم من الإيحاء الدائم المستمد من التاريخ الحي لتلقين الجماعات وإشعارها بالدور الذي لعبته في الماضي وتهيئتها لمواجهة المستقبل ومصاعبه .

ونحن الآن في مصر أمام حركة قومية تحدث العالم عنها ، ووقفت البلاد إزاءها وقفة من تلك الوقفات التاريخية الخالدة ، إذ أجمعت الأمة ممثلة في أحزابها ورجالها وساستها في المطالبة بحق ثابت لها ، وهذا عمل عظيم رائع يملأ النفس تفاؤلا ويكاد يشعرنا بأن الأيام المقبلة ستكون حتما أسعد لنا من الليالي القاتمة السواد التي مضت . وإنا لنحس بأن هذه الدفعة وليدة الوعي القائم والرغبة المنبعثة عن إرادة شاملة للتحرر ، بل فيها ما يقنع بأن هذه الإرادة ترمي إلى أبعد من ذلك كله : ترمي إلى إثبات كفاية هذه الأمة ومقدرتها على التقدم وإلى تأكيد شخصيتها وتحررها من الصلات القائمة لكي تعتمد في حل مشاكلها القادمة على القوة الكامنة فيها وحدها . هذه حالتنا اليوم في موقفنا إزاء الأحداث القادمة ، ولئن شغلتنا قضية البلاد بمشاكلها الداخلية والخارجية ومصاعبها ؛ فنحن في حاجة ماسة إلى تعهد هذه اليقظة ، بعمل دائم من رجال الفكر ، لكي تقوم هذه النهضة على أساس عقلي دائم ، ولكي تبرز القيم الروحية لهذا الوعي ، حتى تغمر الدوافع القومية كل طبقات الأمة . فيكتب لنهضتنا الدوام والاستمرار ، وتحمل طابع الخلود الذي يلازم

(١) « الرسالة » عدد ٦٠٦ في ٢٨ يناير سنة ١٩٤٦

الحركات القومية الكبرى .

وهذا ما يدعونا إلى تقرير بعض البادئ العامة التي تصلح لأن يؤمن بها كل منا . فالمبدأ الأساسي الذي تقوم به علاقات هذا الوطن بالعالم : يتلخص في أن الأمة المصرية في نضالها وكفاحها لا تضمر شراً لأحد من الناس أو لإحدى الدول الأخرى، وإنما تطلب معاملة الند للند ، أي لا تسمح لأي دولة أن تعاملها معاملة أقل من المعاملة المعتادة التي توجد بين دولة أوروبية ودولة أوروبية أخرى ، أي المعاملة المدنية التي تفرض أوروبا قيامها مع أي مجموع راق متطور . ومعنى ذلك أن هذه البلاد كاملة السيادة فهي ليست مستعمرة ، وعلى من يعيش فيها أن يخضع لأنظمتها وقوانينها ومحاكمها وتشريعها ويرعى قواعد الضيافة ويعود نفسه على احترام الأمة المصرية وتاريخها وتقاليدها .

وتستند هذه القاعدة لقيام صلات مع العالم المتمدين ، على مبدأ شامل عام : هو أن الأمة المصرية تسكن هذه الأرض المعلومة بحدودها ، وأن لها على أرض الوطن الحق الطبيعي التاريخي الثابت ، وما من شك في أن هذه الأمة ممثلة في أفرادها وجماعاتها وهيئاتها ، تريد أن تحيا وهي متمتعة بكل حرياتها التي تكفلها حقوق الإنسان ، وأن تتمسك بكامل شخصيتها ومميزاتها . ومعنى ذلك أنها لن تتنازل عن شيء من حرياتها ومميزاتها لأن كل هذا وديعة بأيدي الجيل الحالي سيسلمها كاملة وبأمانة إلى الأجيال القادمة وهي لا تقبل التفريط أو التساهل ، لأن الأمة التي تفقد هذه الأشياء تصبح في النواحي التي ضعفت لديها ، فريسة سهلة لما يحيط بها من تأثير الأمم الأخرى .

وأعظم مظاهر الشخصية للأمم هي اللغة : ولغتنا العربية هي من أعظم لغات الأرض بل هي أقوى اللغات السامية التي شقت بحيوية أهلها طريقها في التاريخ ، وتمثلت فيها عبقرية الأمم العربية وتفوق الفكر السامي وقدرته على الخلود ومواجهة أحداث الزمن ونكباته ، ولها ميزة انفردت بها عن سائر اللغات السامية وهي أن غيرها فني وانقرض وبقيت لغتنا خلال القرون وهي حافظة على قوة التعبير والقدرة على التطور والإبداع .

وفي العالم الحديث ثقافات متعددة أو هي بعدد الأمم الحية وللعصر اتجاهات ، ولكن لنا ثقافة نريد أن تكون حية وهي ثقافتنا العربية وليدة كفاحنا وجهادنا . لا ندوي أن تطغى عليها ثقافة أخرى من لاتينية أو انجلوسكسونية أو سوفييتية مهما علا كعب أهلها في مضماد الحضارة ، لأن ثقافتنا جزء ثابت مكون للشخصية المصرية لا يمكن أن نتنازل عنه أو نقصر في حقه بل يجب أن يبرز في كل ركن وناحية من نواحي نشاطنا . ونحن نطمع أن نأخذ بما في الكون من أشياء نافعة وأفكار مبدعة ، ونريد أن نساهم بقسط في تطور الفكر وإبداعه ، فذلك حق لنا وضرورة لازمة ، ونطمع فيما يطمع فيه غيرنا وهو استكمال النقص فينا لإبراز عناصر الحياة وتدفقها في ثقافتنا ولجعلها حقيقة عالية تفنى فقط حين يفنى العالم بأكمله .

ونحن نعرف ما في قوانين الطبيعة من تفاوت وتفرقة ، وما تمليه قواعد الطاقة ونظم الحياة الحديثة وما في العالم من قدرة وقوى محركة ، ونعرف مواطن النقص لدينا وأماكن الضعف عندنا ، ولكننا سنقبل المعركة كما دخلها الآباء والأجداد من قبل ، سنتقدم بغير هوادة ، لا تقدم اليائس بل تقدم الواثق من نفسه ، سوف لا نقف بعد اليوم لأن الجمود تراجع ، وستبرز فينا القوى الكامنة والمستمدة من عناصر الفتوحات الكبرى بشكل يبهر العالم . ولا يغرنكم ما ترون من تطاحن وتناحر واختلاف وتنابذ، إن ما يبدو مستحيلا أو بعيداً للوصول إليه سيتحقق ، وسنرى الأحزاب مدارس لإخراج الرجال وتدريب القادة ، ستملي النهضة قوانينها الثابتة المستمدة من روح الحياة والتاريخ ، وتأخذ سيرها الطبيعي بعد التحرر ، وتجعل من الأتباع والأعوان أنصاراً للفكرة الكبرى يثبتون على مبادئهم ، ويفرضون على القادة التمسك ببرامجهم السياسية ، فلا خصومة شخصية ولا كراهية يعليها الحقد ، ستكون المصلحة العامة قبل المصلحة الخاصة ، ومصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد . وسنعمل بالعلم والتدريب والنظام إلى خلق طبقة من الرجال : لا يخشون في الحق لومة لائم ، أشداء على أنفسهم ، فيهم الصبر والتؤدة والإقدام والسرعة ، لديهم البصيرة النافذة والعناد والجرأة ، ترى في أعينهم الثبات على الرأي ، ونلمس في مشيتهم قوة الإرادة والسرور في ملاحقة الأخطار والصعب من الأمور ، سيجمع بينهم طائفة من المواطف النبيلة أهمها حبهم لبلادهم وشعورهم بضرورة التفاهم والتعاون لترقية هذا الوطن : سنرى الشافعي في رجل الدين ، وابن بكار في القضاء ، وابن خلدون في العلماء ، وصلاح الدين وبيبرس في القواد والزعماء . وسنقول يومئذ ما قاله توسيديد[1] Thuicidide

« إن قوة المدينة في رجالها لا في قلاعها ولا في أسطولها » .

أحمد رمزي

(١) من مؤرخي الأغريق عاش بين ٤٧١ إلى ٣٩١ ق . م .